مقدمة

ان كتاب « معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار » لابن الخطيب من اطرف كتب المؤلف الشهيرة ، فقد صاغه على هيئة مقامة ادبية ذات منهاج واسلوب فنى انفرد به لسان الدين روعة وابداعا ، مستهدفا وصف اهم المدن الاندلسية والمغربية جغرافيا واجتماعيا كما رآها وعاصرها فى منتصف القرن الثامن الهجرى (منتصف الرابع عشر الميلادى) . فلم تكن المقامة التقليدية لديه هدفا لذاتها من شعوذة واستجداء كما هى عند الحريرى والهمذانى وغيرهما ، او وعظ وتذكير بالدار الآخرة وما فيها من ثواب وعقاب كما هى عند الزمخشرى والدمياطى وامثالهما ، بل ان المؤلف كانت غايته علمية بحتة ابرزها فى صورة ادبية ثقافية ممتعة ، وبالرغم من قيود السجع والمحسنات البديعية الا ان وصفه للبلدان فى مناحى شتى قد جاء فى صورة مشوقة تنبض حياة ، وتتالق براعة . ويصف المقرى هذا الكتاب فيقول : « وللسان الدين مقامة عظيمة بديعة ، وصف بها بلاد الاندلس والعدوة ، واتى فيها من دلائل براعته بالعجب العجاب (1) » .

ولقد اورد ابن الخطيب « معيار الاختيار » ضمن مؤلفه الادبى الضخم « ريحانة الكتاب ، ونجعة المنتاب » الذى ما يزال مخطوطا ، وان كان بعض الباحثين قد قام بتحقيق اجزاء منه ، فمن اشهر نسخ « الريحانة » التى ورد بها « المعيار » واقتضت طبيعة التحقيق والدراسة الرجوع اليها فى كل من المغرب (الرباط ــ فاس) وتونس والجزائر والقاهرة واسبانيا وروما :

1 ــ نسختان بدار الكتب بالقاهرة .

الاولى : يوجد منها الجزء الاول وبعض الجزء الاخير فى مجلدين ، وبخط مغربى ، فى ثناياها ثقوب ونقص واضطراب ، وهذان الجزآن مصوران بالفوتوستات عن النسخة الخطية المحفوظة بمكتبة تونس ، ويقعان فى 309 لوحة ، مسجلين برقم 19875 ز .

---

1) النفح : ج 8 ص 315 ط محى الدين ــ القاهرة .

الثانية : بها نقص يسير من الخطبة ، اولها بعد الديباجة : « ..وسميته لتنوع بساتينه المنسوقة ، وتعدد افانينه المعشوقة ، بريحانة الكتاب، ونجعة المنتاب » .. الخ ، وتقع هذه النسخة فى مجلدين كتبا بخط النسخ ، وقد نقلا عن الجزاين المخطوطين المقيدين بدار الكتب المصرية برقم 524 ادب س ، ويقعان فى 460 ــ 650 صفحة ، مسطرتها 21 سطرا ، وقد سجلا تحت رقم 3459 ز ، وقد اتخذنا لهذه النسخة فى التحقيق الرمز « د » .

2 ــ نسخة الاسكوريال بمدريـــد .

وهى مسجلة برقم 554 من فهرس الفزيرى ، وهى نسخة جيدة للغاية قد كتبت بخط اندلسى باهت ، وتقع فى 281 لوحة كبيرة ، اعنى 562 صفحة ، بكل صفحة 27 سطرا ، وفى كل سطر 12 كلمة فى المعدل العام ، وقد ذكر فى نهاية هذه النسخة انها كتبت سنة 888 هـ ، وقد رمزنا اليها خلال البحـــث بالرمز « ا » .

3 ــ جزء مخطوط بمكتبة الفاتيكان الرسولية بروما ، مكتوبة بخط مغربى وهى عبارة عن السفر الثالث من « الريحانة » ، وعدد لوحاتها 119 لوحـــة كبيرة ، مسجلة برقم 252 .

وقد احتوى هذا السفر على « معيار الاختيار » ، ورمزنا لهذا المخطوط اثناء التحقيق بالرمز « ف » .

4 ــ قطعة مخطوطة اخرى فى مكتبة الجزائر الوطنية من « الريحانة » ، تشتمل على 181 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، مكتوبة بأكثر من خـــط معظمه قديم ، والبعض منها ــ ولاسيما الوسط ــ قد اكمل مؤخرا، او بتاريخ احدث ، وهذه النسخة تشتمل على النصف الثانى والاخير من « الريحانة » ، حيث تبدا بالفصل الذى يحمل عنوان « جمهور الاغراض السلطانيـــات » ، ويغلب على الظن ان هذه النسخة هى اقدم جزء من المخطوط رقم 2010 ، وقد احتوى هذا الجزء ــ ضمن ما احتوى ــ كتاب «معيار الاختيار» موضوع الحديث ، وقد رمزنا اليها بالرمز « ج » .

5 ــ وفى خزانة القرويين بفاس قطعتان من « ريحانة الكتاب » :

الاولى : تضم السفرين الرابع والخامس ، وتقع فى 99 لوحة مزدوجة من القطع الكبير ، فى كل صفحة منها 27 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى ، وفى نهايتها تاريخ الفراغ من نسخها ، وهو يوم الاحد قبل الزوال عام تسعة عشر

ومائة والف (لم يذكر تاريخ اليوم او الشهر) وهـــى برقـــم 40 ــ 565 ، ورمزها ((س)) فى تحقيقنا .

اما القطة الثانية : فهى برقم 3011 ، وتنطبق عليها نفس اوصاف الاولى ولاسيما الخط . .

6 ــ اما فى الخزانة العامة بالرباط (قسم المخطوطات والمحفوظـات) فتوجد عدة نسخ من ((الريحانة)) ، اظهرها واشهرها النسخـة الكتانيـة المسجلة برقم 331 ك ، وهى عبارة عن مجلد ضخم يتالف من 609 صفحة من القطع الكبير ، وفى كل صفحة 25 سطرا ، قد كتبت بخط مغربى واضح، وبها زيادات حديثة ، اغلب الظن انها ليست من انشاء ابن الخطيب ، ولاسيما الجزء الخاص بذكر ملوك بنى امية والخلفاء من بنى العباس ، وهو غفل من تاريخ كتابته ، اما النسخة الاساسية للريحانة فتقع فى 599 صفحة ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ك))

وتوجد بنفس هذه الخزانة غير التى ذكرنا ــ سبع نسخ من ((الريحانة)) قد اشتمل معظمها على ((معيار الاختيار)) وفيما يلى مـــا تضمن منهـــا ((المعيار)) :

فاولها : نسخة كاملة عبارة عن مجلدين من الحجم المتوسط ، ويشتمل اولها على 222 لوحة ، مكتوبة بخط مغربى واضح . والمجلد الآخر عبارة عن 215 لوحة من نفس الحجم ، وقد كتب بنفس الخط المغربى الواضح . وهذه النسخة بمجلديها مسجلة برقم 2195 بالمكتبة الملكية ، وقد رمزنا اليها بالرمز ((ل)) اثناء التحقيق .

وثانيتها : تشتمل على السفرين الرابع والخامس من ((الريحانة)) وعدد لوحاتها 145 لوحة من الحجم الصغير ، ورقم التسجيل 600

وثالثها : عبارة عن النصف الثانى من ((الريحانة)) ، وهى نسخـــة تحتوى على الاسفار الرابع والخامس والسادس ، وتقع جميعها فى 186 لوحـــة .

ورابعها : نسخة ذات اوراق بالية وقديمة تشمل 40 لوحة كبيرة ، قد كتب على الصفحة الاولى منها ((السفر الثالث من ريحانة الكتـــاب)) ، وفى نهاية اللوحة الاخيرة عبارة ((كمل السفر الخامس)) ورقم تسجيلها 6400 .

هذا ، ولا يغيب عن الفكر أن هناك نسخا اخرى من مؤلف ابن الخطيب « ريحانة الكتاب » فى حوزة المكتبات الخاصة ، جلها فى المغرب الاقصى ، ومعظمها قد انتظم « معيار الاختيار » ، بيد انه لا يتسنى للباحث ان يستدل ويطلع عليها فى سهولة ويسر لسبب او لآخر ، فمن ذلك على سبيل المثال النسخة الجيدة التى بمكتبه صديقى الاستاذ عبد الكبير الفهرى الفاسى بالرباط ، وقد تصفحت سفرا خاصا بـ « معيار الاختيار » فوجدتها نسخة قريبة الشبه خطا ونسخا من النسخة الاولى الخاصة بالمكتبة الكتانية التى اشرنا اليها فى ثنايا الحديث عن نسخ الخزانة العامة بالرباط .

ونرى ــ بهذه المناسبة ــ ان نذكر ان مؤرخ المملكة المغربية الاستاذ عبد الوهاب بن منصور قد اخبرنا فى صدد « معيار الاختيار » بانه سبق ان راى نسخة تكاد تكون فريدة منه لدى احد شيوخ مدينة « تلمسان » منذ مدة طويلة ، وترجع اهميتها لكون هذه النسخة قد اشتملت على وصف تلك المدينة وهو ما تنفرد به من دون النسخ الاخرى الخالية منها تماما ، ويعزز رواية الاستاذ عبد الوهاب وجود وصف مدينة تلمسان فى كتاب « نفح الطيب » (ج 9 ص 340 ــ 341) وهو لابن الخطيب كما اثبته المقرى ، والاسلوب فى الوصف على نمط الاسلوب الذى انتهجه المؤلف فى « معيار الاختيار » من بداية بالاستفسار : « قلت فمدينة تلمسان ؟ فاجابة من الراوى : قال : « تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف ، ووضعت فى موضع شريف .. الخ » ، ثم يعقب وصفه للمدينة بما عودنا من ايراد ابرز المثالب كمثيلاتها ، فقال : « .. الا انها بسبب حب الملوك ، مطعمة للملوك . ومن اجل جمعها الصيد فى جوف الفرا ، مغلوبة للامراء ، .. الخ » .

حقا لقد كانت « تلمسان » يومئذ ضمن مملكة بنى مرين حينما امتد ملكهم الى الجزائر عام 796 هـ (1393 م) ، واضحى ملك بنى زيان تابعا لبنى مرين ، وبقى الامر كذلك حتى دب الضعف فى الدولة المرينية ، واستبد بنو وطاس ووزراؤهم بالامر ، فهيا ذلك لبنى زيان ان يستقلوا مرة اخرى بامر تلمسان ، كما هيا مثل هذا الاستقلال للاشراف ان يظهروا فى مراكش بجنوب المغرب (1) .

وقد وفد ابن الخطيب فى ذلك الابان على مدينة تلمسان سفيرا ثم زائرا، واخيرا عندما لجا فارا من الاندلس ، حيث احتمى بظلال بنى مرين على ما

---

1) ابن خلدون فى « العبر » ج 7 ص 166 ، والذخيرة السنية ص 148 ، والاستقصا ج 2 ص 16 .

سنفصله فى الترجمة للمؤلف من بعد ، الامر الذى يقطع بان المؤلف اورد وصف تلمسان ضمن ((المجلس الثانى)) الخاص باهم المدن المغربية ، كما لا نستبعد من ناحية اخرى ان تاليف لسان الدين للمعيار كان زمن امتلاك المرينيين لتلمسان ، وربما كان ذلك اواخر ايامه ، حيث اتيحت له اكثر من فرصة لدراسة المدينة وسواها من مدن المغرب ، ورسم صورة واقعية لها ، كعهدنا به نحو المدن الاخرى التى تناولها بالوصف فى مؤلفه هذا .

لقد كنت تواقا الى رؤية تلك النسخة ، عسى ان اتمكن من ازالة علامة الاستفهام التى ترتسم حيال بقية النسخ من ((الريحانة)) المشتملة على ((معيار الاختيار)) والتى خلت ــ للاسف ــ من وصف مدينة ((تلمسان)) ، ومن يدرى فربما كانت نسخة الجزائر اقرب من غيرها الى عصر المؤلف ان لم تكن قد نسخت على ايامه ، ولكن ما الحيلة وقد طوى الزمن صاحب النسخة، ولا ندرى بالتالى الىمن آلت، هذا ان لم تكن قد انقرضت هىبدورها حيث لم نسمع عنها حتى يومنا هذا من قريب او بعيد ، ولم تتناولها من قبل فهارس المستشرقين ، كما لم تشر اليها اقلام الباحثين من المهتمين بالتراث الاندلسى خاصة .

وعلى اى حال فلا مناص من الحاق وصف مدينة ((تلمسان)) فى نهاية ((المجلس الثانى)) للمدن المغربية ، وذلك نقلا عن ((نفح الطيب)) بنصه ، مقدرا للاستاذ عبد الوهاب بن منصور لفتته العلمية .

هذا ، وقد نوهت اثناء عرض الكتاب بـ ((الفصل الثالث)) ان النسخة التى رايت انها اوفى واحق بالاعتماد فى التحقيق ــ مع اعتبار بقية النسخ ــ هى نسخة الاسكوريال (554) .

وقد رايت استكمالا للفائدة ، والماما بما قد يحتاجه الباحث ان اختط فى هذا التحقيق النحو التالى فى اربعة فصول :

الفصـــل الاول :

وقد اوردت فيه ترجمة تكاد تكون وافية بالغرض لحياة المؤلف ((لسان الدين ابن الخطيب)) .

الفصـــل الثانـــى :

وبه بيان لوجهة نظر بعض المستشرقين والباحثين تجاه ابن الخطيب .

الفصـــل الثالـــث :

وقد اوردت فيه دراسة خاصة بـــ « معيار الاختيار » فى عرض تحليلى من الناحيتين الادبية والتاريخية ، واهمية الكتاب كعمل ادبى ، ثم كوثيقـــة تاريخية هامـــة .

الفصـــل الرابـــع :

وقد اوردت فيه « المجلس الاول » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن الاندلسية » .

الفصـــل الخامـــس :

وقد اوردت فيه « المجلس الثانى » من النص ، وهو الخاص بوصف « المدن المغربية » . وفى ذيلا كـــلا « المجلسين » اثبت فى التعليق ما اقتضاه التحقيق ، واستوجبته الدراسة .

ولا يسعنـــى ـــ آذ اقـــدم هـــذا العمـــل كتـــحقيـــق جديد فى مجال التراث الاندلسى ـــ الا ان اعترف بالفضل لكل سابق فى هـــذا الميدان ، ولا سيما حيال من اسهموا بدراسة او تحقيق لابن الخطيب ومؤلفاته فقد كانت بحوثهم عونا جديرا بالتقدير ، كما اذكر لاستاذنا العلامة عبد الله كنون فضله فى هذا العمل ، جزاه الله خير الجزاء ، وانوه بسبق الزميـــل الدكتور احمد مختار العبادى ، معترفا بالاستفادة الحقة من دراسته فى هذا الموضـــوع .

اخيرا ، آمل بهذا التحقيق ـــ على هذه الصورة ـــ لكتاب «معيار الاختيار» ان اكون قد اسهمت بلبنة فى صرح الذخائر الاندلسية .

والله اسال ان يجد فيه رواد الفكر وعشاق التراث ما ينشـــــدون او يؤملون ، انه سميع قريب ، وبالاجابة جدير .

وهو ـــ سبحانه ـــ ولى التوفيق

المحقـــق
دكتـــور محمـــد كمـــال شبانه
استاذ التاريخ والحضارة الاسلامية
بجامعات المغرب

القاهرة /٢-٣-٢٠٠٢